مدخل إلى الآداب العالمية- سنة ثانية ليسانس -.....د. حميدة سليوة

المحاضرة رقم6:

الأدب الروسي

هو واحد من أعرق الآداب في المعمورة، تميز بالتنوع والثراء، على المستوى الشعبي والرسمي، فقد عرف تراثه الشعبي أنواعا خاصة من **الأغاني الشعبية** التي لا يزال ينشدها الفلاحون إلى يومنا هذا وتسمى"**البيلين**" وهي نوع من الشعر القصصي، وهي من طراز الأغاني التي تنشد في بلاط الأمراء والملوك، مثل ما ينشده "ريا بنين":« **الذي ظهر في بطرسبرج في نهاية القرن التاسع عشر والذي قيل أنه يحفظ أكثر من خمسين ألف بيت من الشعر**»[1]، وأقدم ديوان في هذا النوع هو ل"**كيرشا دنيلوف**" اكتشف عام 1804، ولهذه الأغاني أصول أسطورية هندية وفارسية، كما نجد فيها تأثيرات واضحة للكتاب المقدس والتقاليد البيزنطية والسلافية القديمة وحتى الغربية الأوروبية، وترتكز موضوعاتها حول الأساطير وتعظيم الأبطال، كما هي أغاني **كييف**:« **التي تستمد أصولها من الأساطير، ومن أسطورة العملاق "سفياتوغور" الذي تميد الأرض من ثقله ومات ضحية تباهيه بقوته، وأسطورة"فولفا سفياتو سلافيتيس" الذي يستطيع التحول إلى كل أنواع الحيوان.....وفي موسكو ظهرت بعد ذلك أغان مخصصة بإيفان الرهيب حامي الشعب من"البويار"، كذلك نجد أغان عن ديمتري الزائف وبطرس الأكبر**»[2]، تركزت بعض هذه الأغاني الحاملة لطابع ديني على التغني بحماة الأرض الروسية والدين المسيحي كما هي أغاني"ايليا دي موروم"، وبعض منها قصص دينية من نظم الكهنة تسرد قصص الأنبياء والقدسين والحجاج.

انتشرت في ربوع روسيا ومنذ القديم الحكايات الشعبية، حفظ من خلالها التراث الآسيوي، والأشعار الغنائية التي كانت تؤدي من طرف الجوقة في المناسبات المتعلقة بمواسم الزوع والحصاد والربيع، وأغاني الحب والزواج، وكانت تغنى رفقة الموسيقى والألحان المرحة تارة والحزينة تارة أخرى.

وقد كانت أشكال الأدب الروسي مواكبة لتحولات المجتمع الروسي على مر التاريخ، فقد سادت هذه الأنواع حقبا طويلة ولا تزال شكل من أشكال التراث الشعبي إلى يومنا هذا، إلى أن تفكك المجتمع العبودي بفعل الثورات الفلاحية أواسط القرن الثامن عشر ميلادي، حيث مرت البلاد الروسية بأوضاع اجتماعية وسياسية خانقة لم تنفع معها الإصلاحات، فقد بقي الصراع الطبقي يعصف بالحياة الاجتماعية والنظام الإقطاعي يقاوم البرجوازية، وبقي الفلاح الروسي يحلم بالتغيير، وهذا ما نعكس على الحركة الأدبية حيث عبر الأدباء عن هذه التناقضات الصارخة.

الأدب الروسي الحديث:

1-الكلاسيكية"القرن الثامن عشر":

1-حمود(محمد): الأدب الروسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ط1 2008، ص 5
2-المرجع نفسه، ص 6.

كان عهد إليزابيث الممتد من عام 1709إلى 1762 بداية التحول الأدبي من :« **الاهتمام بالدين إلى الاهتمام بالدنيا**»[1]، وهو عهد انفتحت فيه اللغة الروسية على غيرها من اللغات رغم أن النتاج الأدبي بقي محافظا على التقاليد، وتميز هذا العصر بالصراع بين مختلف التيارات الأدبية رغم أن الاتجاه الكلاسيكي كان الأقوى، وهذا ما يلحظ في أدب الأمير أنطيوش كانتمير :« **شعره لا يخلو من طر افة وجمال الأخلاق والطبائع الروسية**»[2]، وهو على غرار الكلاسيكية عامة صور الكبرياء والوطنية، واستمرت هذه النزعة في السيطرة حتى في فترة حكم"كاترين الثانية إلى نهاية القرن الثامن عشر، وتميز الشعر في هذه الفترة باتباع قواعد الكلاسيكية الفرنسية خاصة في الأوزان والمقاطع والإيقاع وهذا ما أحدثه"**لومونوسوف**"، من تجديد في الشعر الروسي:« **ساعد لومونوسوف في تكوين الاتجاه الكلاسيكي الذي وجه ضربة قوية لثقافة العصور الوسطى الدائرة حول الأساطير والتنبؤات والخر افات واهتم بالحياة المعاصرة وتمجيد الشعب الروسي وقادته والعناية بتاريخ الوطن والتغني بطبيعته**»[3]، وهو الشعر الرسمي للإمبراطورة إليزابيث داعت بفضله الملاحم الدينية، اشتهر **ساماروكوف** وهو أقرب إلى راسين وموليير.

انتشر في هذه الفترة المسرح الشعبي في المدارس وبلاط القيصرة:« **أناطت إدارته بسوماروكوف صاحب المؤلفات المسرحية العديدة التي يحذو فيها حذو الكلاسيكية الفرنسية، و أبطاله يشبهون أبطال تمثيليات راسين**»[4]، مع أن موضوعات المسرح في روسيا تختلف عن موضوعات الكلاسيكية الفرنسي،

لم يخلو هذا القرن من صيحات ثورية هنا وهناك حمل لوائها شعراء صوروا:« **عيوب إدارة الحكم ومساوئ نظام المجتمع في روسيا مصورا تعاسة الفلاحين وتحكم الأسياد**»[5]، كما هي أشعار فريلون وفسياكيافيساتشينا(1769)، حيث حاولوا ايجاد حلول للقضايا الاجتماعية وخاصة"قضايا الفلاحين" التي كانت في صدارة اهتمام الأدباء، خاصة مع تعاظم الاحتجاجات الفلاحية التي كانت تظهر هنا وهناك، وانتقلت روح الانتقاد هذه إلى المسرح من أمثال"فونفيزين" خاصة مسرحيته"**المينور** عام 1782". وعرف القرن 18 طلائع الرومنسية مع مع تشولكوف الذي أصدر مجموعة الأغاني عن الحكايات السلافية ثم الحكايات الروسية، متأثرين بجان جاك روسو:« **ملبيا فطرة النفس الروسية هو انتصار العاطفة على العقل. أنه عهد الصداقات اللاهبة والغرام الأفلاطوني ووقفات الخشوع والتأمل فوق القبور**»[6]، وقد سبح الشعر عنده وعند"كرمزين" في العاطفة في قصته"ليزا المسكينة1792" وتستعير لغته من اللغات الأجنبية تعابير ومصطلحات وكان بذلك قدوة لمن جاء بعده من أمثال بوشكين وديمتريف.

2- الرومانسية:

عرفت الرومنسية طريقها إلى الأدب الروسي بداية القرن التاسع عشر، وساعد على شيوعها بين المثقفين الأهمية التي يوليها المجتمع الروسي للشعر دون باقي الأجناس الأدبية، ثم المجلات الأدبية التي حفلت بنشر مبادئ الرومنسية

1-المرجع السابق، ص 16.
2- المرجع نفسه، ص 16.
3-شرارة(حياة) ويونس(محمد): مدخل إلى الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، دار المدى دمشق سوريا،ط 1، 2021، ص16.
4- حمود(محمد): الأدب الروسي، ص 17
5-المرجع نفسه، ص 18.
6-المرجع نفسه، ص 19.

وأعمال أهم شعرائها ك"**تلغراف موسكو**" **ومجلة "التلسكوب"**، أبرز شعرائها دون منازع هو "**ألكسندر سريجيفيتش بوشكين**" رغم من سبقه من أمثال: **جوكوفسكي** و**باتيوشكوف**، وكان لهذين الأخيرين دور هام في ترجمة أعمال اليونان إلى الروسية كالأوديسا التي ترجمها **جوكوفسكي**، **وباتيوشكوف** الذي ترجمة أعمال اللاتين وهوراس على وجه الخصوص، أما في المسرح فقد تعرف الروس على البطل الرومنسي مع غريبويادوف بمسرحيته"**البؤس**":« **والبطل فيها شديد الشبه ببطل مسرحية"الميزانتروب كاره البشر لموليير** »[1]، وهي مسرحية انتقادية ينتقد فيها المجتمع ويصف بيئة موسكو.

تميز كل هؤلاء بـ: الشعر العاطفي الجياش والشعور المرهف الحساس، والحنين إلى الماضي وفي المقابل الانفصال عن الحاضر، بالاكتئاب كسمة أساسية في جميع أعمالهم الشعرية، كما في أشعار ديرجافين:«**امتزجت في قصائد ديرجافين صور الحياة اليومية والتغني بالطبيعة وبحب الحياة والابتهاج بها**»[2]، فجل موضوعات الشعر في قصائده حول الحب والمشاعر الإنسانية، أما في المسرحية فيظهر البطل الرومنسي في المسرحيات والقصص يائسا من أوضاع المجتمع والرياء والنفاق، الذي يميزانه ويدفعان الناس إلى الهروب من الواقع، أما من حيث الشكل الفني فقد ابتكروا أوزانا شعرية مخالفة لما هو كلاسيكي، وتخلصوا من اللغة المتصنعة وفي المقابل اقتربت لغة الشعر من لغة الجماهير فكانت بسيطة وسهلة على الأفهام، عني الرومنسيون بموضوعات العصر كالطبقات الاجتماعية والفروق بينها وهموم الفلاح الروسي ونبذ الإقطاع والغش والفساد.

استفاد **بوشكين**[3] شاعر الروس الأعظم من التراث الأدبي الذي خلفه السابقون له، بالإضافة إلى معرفته القوية باللغة الفرنسية التي سهلت عليه التعرف على عيون الأدب الفرنسي والأوروبي، وقد نشر أول قصيدة له عام 1820" **روسلان وليودميلا**" وقد لاقت أشعاره رواجا كبيرا بسبب موضوعاتها الحماسية، والعاطفية التي تتغنى بالحب والجمال ومنها:**أسير القوقاز**" و"**الإخوان الشداد**" و"**الغجريات**" و"**إلى البحر**"، وهي قصائد تتغنى بالطبيعة الحالمة وسحرها:« **ففي روح القصيدة حياة وحماسة وصدق...حيث الطبيعة جميلة جمالا ثريا....ببساطة ومن دون تكلف بكل ما فيه من رغبة وصدق عاطفي**»[4]، يتميز الشعر عند بوشكين:« **غاية في التنوع من حيث الصيغة ومصادر الإلهام. لغته صافية دائما، ينهل من لغة أبناء قومه: التعابير المألوفة في الصالونات، أمثال الفلاحين، ويستعمل في شعره كل الأوزان الموسيقية التي سبق إليها ويصبها في موسيقى جديدة**»[5]، فقد كانت موضوعات الشعر عند بوشكين: الحياة المعاصرة بين المدينة والقرية وحياة الناس بين العواصم والضواحي والفلاحين والإقطاعيين، والطبيعة الغناء-القوقازية- من ربيع وخريف وصيف وشتاء، الموضوع الحاضر بقوة هو الحب والصداقة، أما من ناحية الشكل الشعري فقد حافظ على الوزن الشعري مع كثير من المحسنات اللفظية البلاغية رغم بساطة الموضوع، وإضافة إلى نهله من الثقافة العربية الإسلامية خاصة في قصائد"**الرسول**" و"**قبسات من القرآن**" التي يظهر فيها التأثر بالشعر العربي جليا وبالإسلام وألف ليلة وليلة، يرسم بوشكين في شعره الطبيعة الروسية ويتغنى بالحب اليائس، مع اللمسة السوداء المكتئبة التي تميز

1-المرجع السابق، ص 22.
2- شرارة (حياة) ويونس(محمد): مدخل إلى الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، ص18.
3- شاعر روسي من أصول إفريقية عاش في بلاط بطرس الأكبر، كان متأثرا بفولتير.
4-بلينسكي:الممارسة النقدية، تر:فؤاد مرعي، مالك صفور، دار الحداثة بيروت لبنان، ط1، ص 39.
5- حمود(محمد): الأدب الروسي، ص 26.

الشعر الرومنسي عامة، وينادي بالحرية، وبأن الشعر وسيلة تعلو بها النفس وترتقي والشعر الرومنسي هو نبي هذا الزمن. وله في القصة"**أوجين أونيفين**"1830 وكانت أول قصة واقعية في الأدب الروسي.

3- الو اقعية:

شهد العقد الثاني من القرن التاسع عشر انحسار التيار الكلاسيكي والرومنسي، إذ أن الأوضاع الاجتماعية والتفكك الاقتصادي كان له دور كبير في تغيير أساليب التعبير الأدبية، وهذا ما فتح المجال واسعا أمام الاتجاه الواقعي الذي بدأت بوادره مع بوشكين في قصص: "**أقاصيص بيالكين**" و"**صانع التوابيت**" و"**معلم المركز**" عام 1830، وجاء بعد ذلك غوغول ويعود له منشئ الرواية الروسية خاصة مع "**يوميات مجنون**" و"**قصة المعطف**" وهما باكورة الواقعية الروسية، التي استمرت مع"**النفوس الميتة" ومغامرات تشيشكوفا**" عام 1842:« **يصور الجزء الأول من هذه القصة عمل تشيشكوف ومقابلاته للإقطاعيين بهدف شراء الأرواح الميتة للفلاحين**»[1] ، وهي نماذج تعري واقع الجشع الإقطاعي في الأرض الروسية وتجردها من الإنسانية. واتسمت واقعية **غوغول** بـ: المزج بين الوصف الدقيق والسخرية والبساطة في الواقعية التي تصل إلى كوميدية مضحكة ومبكية كذلك، كما في قصة"**ملاكي الزمن القديم السعيد**"، و:« **ذوق الفكاهة وحيوية الحوار**»[2]، والتركيز على تصوير معاناة الفلاحين مع بعض الرومنسية أحيانا، فهو شاعر الواقعية:« **ألا تجعلهم تقولون: كم هذا بسيط، عادي، وطبيعي، وصادقن وكم هو أصيل وجديد[...] كل بطل في قصصه وكأنكم تعرفوته وتعايشونه منذ بعيد [.....] إنه يصور لوحات الحياة اليومية**»[3]، فقصصه واقعية بل شعبية، تعبر أصدق تعبير عن حياة الشعب الروسي وعاداته وطباعه، وهي أصالة فريدة لم تعرف عند غيره من الكتاب. خاصة في قدرته تشكيل النماذج الإنسانية.

اكتملت معالم الواقعية مع عبقرية دوستوفسكي، الذي كان متأثرا بأهم روائيي القرن التاسع عشر من الفرنسيين:« **بلغ في كتابه ما لم يبلغه هيجو من حيث بساطة التعبير وصدق التصوير**»[4] وقد واكبت رواياته أهم التحولات الاجتماعية في المجتمع الروسي في ق19 بداية بـ"**المساكين**" 1845 و**المهانون** عام1861 **والجريمة والعقاب** 1866 ثم **الأبله**"1869 و**الشياطين** 1872 و**المراهق** 1875 **والإخوة كرامازوف** 1880. وركزت رواياته على وصف الإنسان الروسي البسيط خاصة فقراء المدينة كما في المساكين والجريمة والعقاب، وهو لم يركز على حياة الفقراء الاجتماعية كثيرا وفي مقابل :« **اهتمامه بتصوير العالم الروحي والأخلاقي للفقراء والذي يبرز في ارتباط وثيق بوجودهم المادي، فالمشكلة الاجتماعية للفقر في روايات دوستوفسكي من خلال المشكلة الأخلاقية والنفسية**»[5]، وقد نهج الأديب أسلوبا تحليل واقعي، حيث يشكل العالم الداخلي للأبطال حجر الأساس في روايات دوستوفسكي وهو عالم المشاعر المعقدة من أنانية وحقد وغضب في مقابل مشاعر الخير والضمير والتضحية.

1-المرجع نفسه ، ص34.
2-المرجع السابق، ص 33.
3- بلينسكي:الممارسة النقدية، ص142.
4-أمين(أحمد) ومحمود(زكي نجيب): قصة الأدب في العالم، ج3، مؤسسة هنداوي، بورك هاوس، المملكة المتحدة، 2021، ص253
5- حمود(محمد): الأدب الروسي، ص 38.

وقد كانت رواياته صورة صادقة عن روسيا الحديثة:« **تصور الكثير من أحداثه الجارية ومشاكله الملحة كالجريمة والركض وراء المال، ووقوع الإنسان ضحية الإغراءات والأفكار الشريرة، والانفصام بين الشخصية والمجتمع وبين الطبقات الحاكمة والشعب**»[1]، ومن ذلك التفكك الأسري والأفكار الرجعية، وحاول من خلال رواياته الترويج للأفكار الاشتراكية، حيث أن أبطاله دائما من الأقليات المظلومة والثائرة على نظم السياسة والمجتمع. دون أن نغفل كون دوستوفسكي هو خير من كتب الرواية الاجتماعية الفلسفية كما في الإخوة كرامازوف التي تضمنت كثيرا من الأفكار الثورية التي التعارض في وجهات النظر، فهو:« **يصور مصير شخصياته في ارتباط لا ينفصم بالموضوعات الفلسفية والأخلاقية والدينية**»[2]، وهذا ما طبع رواياته بالمأساوية والتساؤل العميق عن مصير الإنسان التراجيدي والتناقض الكبير الواقع الداخلي للإنسان وحياته الاجتماعية.

ويكتمل الحديث عن رواية روسيا الواقعية **بتولوستوي** صاحب: **الحرب والسلم1869 و أنا كرنينا** 1877، **والبعث** 1889، وكان من رواد التجديد والعالم الأدبي عنه عالمان:« **عالم السادة وعالم المسودين، والذي ينبسط من خلاله مشكلة الفلاح، أكثر الموضوعات المحببة عند تولستوي الكاتب والإنسان**»[3]، وعكست كتابات تولستوي الحياة الروسية في القرن 19 معتنقا شعار التجديد لهذا كانت رواياته:« **تتسم بالغناء والعمق في التصوير الفني للشخصيات وكل عملية الحياة، كما تمكن تولستوي من النفاذ إلى سر العلاقات الاجتماعية فجاءت و اقعيته بحق خطوة في الأمام في تطور الو اقعية لا في الأدب الروسي وحده بل في الأدب العالمي**»[4]، صور أزمة الإنسان المعاصر بطبقاته خاصة الطبقة الإقطاعية، وحاول الكشف عن علاقة النفس الإنسانية بالبيئة الخارجية والمعيشة اليومية حتى لقب بالمحلل النفسي كما في **أنا كرنينا** حيث تظهر نزعته الأخلاقية في تفننه في تصوير أنا ووصف جمالها:«**فهو يصور الشخصية كلها بوصف جزء واحد من العلامات الجسدية المميزة للشخص الذي يصفه**»[5]. وكلها أساليب في الكشف عن أسرار النفس الإنسانية.

دون أن ننسى **أنطوان تشيخوف وماكسيم كوركي** وهما من أعلام الواقعية الروسية، وقد تميز الأول بالفكاهة والهزل في قصصه ومسرحياته، مركزا على مآسي الفلاح الفقير ورفاهية التجار والأغنياء في :"**الأخوات الثلاث** 1903، **وروح الغابات1889 والدب وطلب زواج1888**. أما **مكسيم كوركي** صاحب رواية **"الأم"** 1906 التي تصور حياة أشخاص حقيقيين حول مظاهرة حدثت عام 1901، وهي رغم تمردها لوحة قاتمة عن العمار والبرجوازيين الصغار.

1- المرجع السابق، ص 38.
2- المرجع نفسه، ص40.
3- المرجع نفسه، ص 43.
4-المرجع نفسه، ص 42.
5 - أمين(أحمد) ومحمود(زكي نجيب): قصة الأدب في العالم، ص258.